اليسرى آثارُ كسلٍ حيويّ. وعلى نحوٍ غامض، قدّرتُ أنّ بذلته الثمينة، ولهجتَهُ الشمالية النحاسية، وشبَهَهُ الغريبَ بجدّي، علاماتٌ مضيئة على دربِ فكّ ألغاز الاختفاء. وبدا لي أنّ الجملة الوحيدة التي يتوجب عليه أن يتفوّهَ بها هي: «شأنك الآن أن توقّعَ صكّ الاختفاء، وأن تمهره بخاتم جدّك». ولا بدّ أنه سيشرع، بعد ذلك، في تلاوة بيان الاختفاء.

لكنْ سرعان ما خاب توقعي، حين انخرط الرّجلُ في نشيجٍ يصعب وصفه، ملوِّحاً بقبضتيه في المساحة المحسوبة بيننا، منادياً أسماء كثيرةً، لم أستطع أن أتعرف على أصحابها؛ فيما كانت شعلةٌ مهذبةٌ تترقرق في أعماق عينيه، وصمغٌ أصفر، ينفجر من بثور رصاصية آخذةٍ في الانتشار على عرض لسانه، قبل أن يتراجع خطوتين الى الوراء، ليندفع إلى الأمام، نحو عمق الصالة، حيث كان عليه أن يأخذ مكانه، في صورةٍ عائليّة تشغل مساحةً كبيرةً من الجدار المقابل للباب - بين جدّي وزوجتي.

تطوان

أوراق شجر مبعثرة

مجدي القوصي

بداية : بعد يوم واحد من وصولي نجحتُ في الحصول على أُولى أوراقي. كانت مفيدةً للغاية، عرفتُ عن طريقها اسمي المختارَ كاملاً، وعرفتُ اسمَ البلد الذي جئتُ إليه وأصبحتُ منه، وعرفتُ اسم اليوم الذي سأتعبد فيه إلى ربي جماعةً. ما لم أستطع معرفته أو الوصولَ إليه هو تفاصيل ما سوف يحدث لي وما سيصير اليه أمري.

حماية : أكثر من مرة فعلوها بي، مرةً في الفم ومراتٍ في الأليةِ، ثلاثي وثنائي شلل وسلّ، حصبة وسحائي. يقولون على ظهر الشهادة إنّ التطعيم أمان وحماية، وإنّ مَنْ يُطعَّم ضد مرض ما لن يصاب به أبداً. تساءلتُ في براءةٍ لم أكن أعرف أنها تناسب سنّي الصغير، عن الأمصال المضادة للفقر والحاجة والضعف والخوف وما شابه.

ربايـة: في المدرسة روّضوني وأدّبوني وأطعموني وضربوني وألعبوني وأعطوني في نهاية كل عام شهادةً نظيفةً خاليةً من الدوائر الملونة. حاولتُ في نهاية كلّ عام فهمَ العلاقة بين ما مَرَّ وما سوف يمرّ، ولم أفهم. افترضتُ حسن النية، وتعلّلتُ بصغر السن، وتذرّعتُ حتى النهاية بالصبر والحِلْم.

حب : عندما استلمتُ خطابها ولم أستطع تجاهل المعاني الكامنة وراء لون الورق الورديّ ورائحةِ العطر الفوّاحة، حدّثتني عن الحب والهيام والود والغرام والقمر والليل والشعر والجمال والسهر والسمر والشفق والغسق والغروب والشروق، وكيف أنها لن تستطيع الزواج مني لأني لا أملك شيئاً سوى حبي.

جد : أصرّوا أنْ وأصررت ألاّ، أصروا وأصررتُ، أصروا وجلستُ أضع توقيعي على وثيقةِ الاستسلام. مرّتْ أمام عيني ستائرُها الحديديةُ وأثاثُها المنمّقُ وملابسُها الموشّاة. ثم مرَّ منزلي الذي صار أيضاً منزلها، وحياتي التي أصبحت أيضاً حياتَها، وتذكرتُ اقتحامها الأنثويّ لي ولكياني، واختراقَها الكامل لكل دفاعاتي. حاولتُ ألاّ، وأصروا أن... وكان أن...

كد : أوراق السفر، إنْ عاجلاً أو آجلاً، كان عليّ إعدادُها، وكأنّي لكي أستمر كان عليّ أن أفرّ. أعدتُ الكشف عن الأوراق: جواز السفر، وكان هناك جواز لعدم السفر، تأشيرة الدخول، وتأشير الخروج، وتأشيرة ما بينهما... تذكرة الطائرة، أتذكرها ومن قال إنّي سأنساها؟ حذّرني البعضُ، وخدّرني البعضُ، وكدتُ في آخر لحظة... وكانت الحرارة يوم وصولي ٤٥ درجة مئوية.

الغول : قال الطبيب وهو يمدّ يده بالوصفة الطبية: «نعم، أؤكد لك أنه حتى الآن لم يتم اكتشاف دواء ضد الجهل والفقر والخبث وكل ما تقول. اهتم بنفسك الآن ولا تنس الدواء؛ إنّ حرارتك مرتفعة للغاية فلا تُهْمِل». خرج الرجل دون أن ينظر وراءه، فيما أخذتُ أُنزل ملابسي ليبين لحمي استعداداً للحقنة القادمة.

العنقاء : وجدتُها بالصدفة وأنا أبحث وسط أوراقي، صغيرةً، مصفرة. وفي أحد أركانها انثناء. لم أكن قد رأيتُها من قبل. دققتُ النظر فيها، فيما أخذتْ حدقتا عينيّ تتسعان. كان الاسمُ المدوَّن فيها اسمي، وكان اليوم المدون فيها اليومَ، وكانت ساعةُ الوفاة الساعةَ، ساعتي. قرأتُ الورقة عدة مرات ثم وضعتُها جانباً. وبالفعل، لم أخيِّب أيَّ ظنون.

الخـــل الوفـي : بعد تخرّجي من الدنيا مباشرةً وصلتْ إليّ ورقةٌ من جهةٍ لا أعرفها بالضبط، تقول كلماتها: «نشهد أنّ المتخرج المدوَّن اسمُه كان ولم يعد الآن. وهذه شهادة بذلك، وإنْ كنّا نقدِّمها دون أية مسؤولية علينا».

القاهرة